

هامة الأساة الموريسكية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم في
هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ،
إذ وقع في المعسكر الموريسكي حادث خطير هو مصرع
محمد بن أمية ؛ وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ؛ وكانت
عوامل الخلاف والحسد تحيط بهذا العرش بسياج من الأهواء
الخطرة ، وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه وفروسته
ورقيق شمائله كثيرا من العطف ، ولكنه كان يثير ببصرامته
وبطشه الحقد في نفوس نفر من ضباطه ؛ وتقص علينا الرواية
القشتالية سيرة مقتله ، فتقول إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء
يدعى ديجو الجوازيل له عشيقة جسيمة تسمى زهرة ، فأنزعهما
محمد منه قسرا ، فحقد عليه ، وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ،
فزور على لسانه خطابا إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على
التخلص من المرتزقة الترك ، وكانت ثمة منهم فرقة في المعسكر
الموريسكي ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى
مقر محمد بن أمية . وقتلوه بالرغم من احتجاجه وتوكيد برأته ؛
واستقبل الجند الحادث بالسكون ؛ وفي الحال اختار الزعماء
ملكا جديدا هو « ابن عبو » فتسمى بمولاي عبد الله محمد ،
وأعلن ملكا على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذي وصفناه .
وكان مولاي عبد الله أكثر فطنة وروية وتديرا ، فحمل الجميع
على احترامه ؛ واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش واستقدام
السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع
حواله جيشا مدربا قوامه زهاء عشرة آلاف بين مجاهد
ومرتزق ومغامر

وفي أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاي عبد الله

ترجع إلى القاهرة يوم الجمعة ، الذي هو قبل السبت الذي
سافرت فيه ... معلوم ... الأمر واضح جداً ... فيحسب
المدرس أنني أسخر منه ، ويعاقبني بالحبس ساعة ، آخر النهار ...
هذا ياستي ما كان مدرسا يعلننا ... لقد ضاع علينا والله
ما أنفقناه في التعلم ... والآن بعد أن استرحنا من المدارس
والمدرسين المخرفين نركب هذه الباكسة الجميلة ونحن نعتقد
أن الدنيا بخير ، وأن العقول لم تطر من الرؤوس وإذا بهم
يقولون لنا ردوا عقارب الساعات لانا رجعنا ساعة ؟؟
والذي يدهشني هو أن تصديقهم

فتقول فتاتي : ولكن هذا صحيح ،

فأصبح بها - برغمي - : كيف تقولين هذا الكلام ؟؟
هل تريدني مني أن أقول إن الساعة الرابعة حين تكون
الخامسة ؟ إنك تكلفيني شططا ،

فتقول : لقد كسبنا ساعة ،

فأقول : أرجوك ! أرجوك ! ،

فتقول : صحيح والله ،

فأقول : يابنت الحلال كيف يمكن أن نكون قد كسبنا
هذه الساعة وهي قد ولت ؟ ثم إنني لم أكن معك فيها ، لأنني
كنت نائما فالحسارة مضاعفة ،

فتضحك وتقول : كسبناها لانا استرجعناها ،

فأقول : إيه ؟ استرجعنا الساعة التي ولت ؟ مدهش ! ،

فتقول : ألا تصدق ؟ ،

فأقول : يا حبيبي ، يا روي ، يا عقلي ... أرجوك ! ،

ألف راه جيم واو الخ الخ . ،

فتضحك فأقول : اسمي إنني لأحب أن يبق هذا الخلاف
بيننا ، وأنا من أجل عينيك النجلارين أفعل ما تريدني - لآعن
اقتناع ، بل ارضاء لك - وأنا مستعد أن أقول إننا رجعنا إلى
العام الماضي ... والله فكرة ! تعالى نرجع طفلين ونلعب ...
فتذهب تعدو ضاحكة وأعدو وراها حتى أدر كها .

ابراهيم عبد القادر المازني

يجيشه صوب « أورجه » ، وهى مفتاح غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاغت شهرته ، وهرع المورييسكيون فى شرق البشراى إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بساطر رندة ومالقة ؛ وكثرت غارات المورييسكيين على فخص غرناطة (لافيجا) ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى . وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة المورييسكية وعجز القادة المحليين عن قمعها ؛ قد عين أخاه الدون جون (خوان) قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون جون اشتداد ساعد المورييسكيين ، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأسى جيشه ، وسار صوب « وادى آش » ، وحاصر بلدة « جاليرا » ، وهى من أمنع مواقع المورييسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف مورييسكى منهم فرقة تركية ، فهاجمها الاسبان عدة مرات ، وصوبوا عليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة أبدى فيها المورييسكيون والنساء المورييسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل فيها عدة من أكابر الاسبان وضباطهم ، ودخلها الاسبان دخول الضواري المفترسة وقتلوا كل من فيها ، ولم يفرؤ النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة ، (فبراير سنة ١٥٧٠) وتوغل الدون جون بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من المورييسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبى » ، تبلغ بضعة آلاف ، فقاجأت الاسبان فى سيدون ومزقت بعض سراياهم ، وأرقت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدة كبيرة ، ولم يستطع الدون جون أن يعيد النظام إلا بصعوبة ، فجمع شتات جيشه ، وطارد المورييسكيين ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى اندرش فى مايو سنة ١٥٧٠

وهنا رأت الحكومة الاسبانية أن تجنح إلى شيء من اللين خشية من عواقب هذا التضال الرائع ، فبعث الدون جون رسله إلى الزعيم الحبى يفتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعمو التام عن جميع المورييسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانهم ، ولهم أن

يقدموا ظلالاتهم فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ماعد النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت ؛ فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن المورييسكيين أيقنوا نهائياً بأن أسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام وإنما غير أهل للوفاء ، فعاد الدون جون إلى استئناف القتال والمطاردة وانقض الاسبان على المورييسكيين محاريين ومسلمين يعمنون فيهم قتلاً وأسراً ؛ وسارت قوة بقيادة دوق سيزا إلى شمال البشراى واشتبكت مع قوات مولاي عبد الله فى عدة معارك غير حاسمة وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت عن طريق الحبى ؛ وكان مولاي عبد الله قد رأى تجهم الموقف ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تبعاً ، والقوة الغاشمة تحتاج فى طريقها كل شيء . ، فقال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من برائن القوة القاهرة ؛ واتفق المفاوضون على أن يتقدم الحبى إلى الدون جون باعلان خضوعه وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن المورييسكيين ، وتكفل الحكومة الاسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت إقامتهم ، وفى ذات مساء سار الحبى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون فى اندرش وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود

ولكن هذا الصلح لم يرض المورييسكيين ، ولم يرض بالأخص مولاي عبد الله وباقي الزعماء ، ذلك لأنهم لمحوا فيه نية إسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ؛ فقيم كانت الثورة إذأ ، وفيهم كان التضال ؛ لقد ثار المورييسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء ، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر المورييسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاي عبد الله فى موقف الحبى إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه إلى معسكره بالحيلة ؛ وهالك أعدم سراً

ووقف الدون جون على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاي عبد الله ، فأعلن إليه أنه يترك المورييسكيين أحراراً فى تصرفهم ، بيد أنه يأبى الخضوع

إغراء ضابط مغربي من خاصته يدعى « الزينش » ، أغداقوا له المنح والوعود إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله حيا أو ميتا وزودوه بالعفو الشامل ؛ فدبر الضابط الخائن خطة لاغتيال سيده ؛ وفي ذات يوم فاجأه مع شزيمة من أصحابه فقاوم مولاي عبد الله ما استطاع ولكنه سقط أخيراً مشحناً بجراحه فحمل الخونة جثته إلى غرناطة ؛ وهناك رتب الأسبان موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هي إنسان حي ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الاعدام ، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والنكال ، وبعد ذلك أحرقت في الميدان الكبير .

— ٥ —

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت وخبت آخر جذوة من العزم والنضال في صدور هذا المجتمع الأبي المجاهد وقضت المشائق والمخارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، في ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى .

على أن إسبانيا النصرانية لم تطمئن مع ذلك إلى وجود هذا الشعب المستكين الأعزل الذي ما زال رغم ضعفه وذلته يملأ جنباتها بفنونه ونشاطه المنتج ؛ وكانت الكنيسة ما زالت تنفث إلى الدولة تحريضاً البغيض على مجتمع لم تطمئن إلى صحته لإيمانه ، وكانت الدولة ذاتها تلتبس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع ومطاردته ، فهي نخشى من أن يعود إلى الثورة ، وهي تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمي إفريقيا ، وكان التنصر المطبق قد غم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والتطور نصارى وقشتاليين ، يشهدون القداس ، ويتكلمون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل تلفظهم إسبانيا النصرانية وتحيطهم بريها وبغضها ؛ وكانت ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية ومرسية ؛ ففي عهد فيليب الثالث اتخذت إسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة ، وأصدرت قرارها الشهير في صحف الاضطهاد ، بنى الموريسكيين أو العرب المتصرين من إسبانيا ، وإخراجهم

مابق فيه رمق يلبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك إسبانيا بأسره ؛ والظاهر أن مولاي عبد الله كانت قد وصلته يومئذ أمداد من المغرب شددت أزره وقوت أمله ؛ وعادت الثورة إلى اضطرابها حول رندة ، وأرسل مولاي عبد الله أخاه الغالب ، ليقود الثوار في تلك الأنحاء ؛ وثارَت الحكومة الإسبانية لهذا التحدي ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ؛ فسار الدون جوان في قواته إلى وادي آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دوق ريكسانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الأسبان في طريقهم كل شيء وامعنت في التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف في وجه هذا السيل فزقت تباعاً ، وهدم الأسبان الضياع والقرى والمعازل ، وأتلفت الأحرار والحقول حتى لا يبق للثائرين مئوى أو مصدر للقوت ، وأخذت دعائم الثورة تنهار بسرعة وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم في أفريقية ، ولم يبق أمام الأسبان سوى مولاي عبد الله وجيشه الصغير ؛ بيد أن مولاي عبد الله لبث معتمداً بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف .

وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثاني قراراً بنى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها ؛ ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والنحوط ، وجمع الموريسكيون في الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند في كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتوا داخل الأقاليم الإسبانية ، وانهار بذلك المجتمع الموريسكي في مملكة غرناطة .

ولم يبق إلا أن يسحق مولاي عبد الله وجيشه الصغير ؛ وكان هذا الأمير المنكود يرى قواده وموارده تذوب بسرعة وقد انهار كل أمل في النصر أو السلم الشريف ؛ بيد أنه لبث محتفياً في أغوار الجبال مع شزيمة من جنده المخلصين ، وفي مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للأسبان فأوفدوا رسلهم إلى معسكره في بعض المغائر وهناك استطاعوا